

السؤال الديني في المتخيل الأسطوري اليوناني

The Concept of Religion on the Greek Mythological Imaginary

د. عبد القادر بلعالم¹

جامعة حسية بن بوعلي الشلف

belalemabdelkader@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2019/04/06 القبول 2020/10/05 النشر على الخط 2021/03/15

Received 06/04/2019 Accepted 05/10/2020. Published online 15/03/2021

ملخص:

إن الأسطورة "بالمعنى الحرفي اليوناني، تنطبق على كل حكاية تروى". وموضوع الحكاية هو "الآلهة" التي تشكل نواة "الدين". وهو ما يعني أن الدين كمجال قدسي لعالم ألوهي، يتضمن تصورات وجودية، وحقائق عقدية، ومعايير قيمية... وجد في الأسطورة وسطا خصبا لتصوير حقائقه خياليا وتجسيدها عمليا، انطلاقا من مشترك "الألوهية" الذي يجمعهما. مما جعله دينا أسطوريا من حيث زمانية ومكانية نشأته، وطبيعة تصويره، ومشهدياته. فما وجه الخصوصية المفهومية والوظيفية لأسطورة الدين في لحظتها اليونانية؟ هذا التساؤل هو ما يحرك تفكيرنا في هذا المقال للوقوف. تأصيلا وتفصيلا. على حقيقة وطبيعة التخييل الأسطوري للدين في أصوله وأصالته اليونانية.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة؛ الدين؛ المتخيل؛ الشعر؛ هوميروس.

Abstract:

A myth, literally, refers to any story that deals with "Gods", which themselves, construct the core of religion. As a theological discipline, religion encompasses ontological/existential conceptions, theological/dogmatic realities and theological references and values... Mythology provides a fertile ground where the discipline of religion was able to demonstrate its perceptions in an imaginary manner, and embody them in a practical way. This was made possible due to the common point between mythology and religion. This similarity between them lies in divinity. This criterion has made religion mythological in terms of its foundation setting (time and place), the nature of its perception and its cultural embodiment. This paper attempts to provide a deconstructive and analytical investigation to the nature and reality of the mythological imaginary of religion within its Greek tradition and frame. In addition to providing an answer to the following question: what is the conceptual and functional significance of mythologizing religion in Greece? In addition, it

Keywords: Myth ; Religion ; Imaginary ; Poetry ; Homer.

¹ - المؤلف المرسل: عبد القادر بلعالم البريد الإلكتروني: belalemabdelkader@yahoo.fr

مقدمة:

حينما يثار سؤال "الحقيقة الدينية" في سياق الثقافة اليونانية الكلاسيكية؛ ينتصب في أفق التفكير، بالبداية وعلى الفور، موضوع "الأسطورة"، حيث إن التصورات والمعتقدات الدينية انبثقت من التخيل الأسطوري ابتداءً، وقد ثبت من خلال البحث والتأريخ لنشأة الفكر اليوناني أن "الأساطير هي المكوّن الأساسي للدين". ويتجلى ذلك بدقة ووضوح في تعلق الأسطورة اليونانية بـ "المقدس" وانخراطها فيه. تصويراً وتمثيلاً مشهدياً، إلى الحد الذي جعل منه (أي المقدس) مكوّنًا بنيويًا في مفهومها ووظيفتها، كما يظهر ذلك من خلال أحد أبرز وأهم تعريفاتها بأنها "حكاية مقدسة".

ومن ذلك يفيد أن حضور "الديني" في التراث الثقافي اليوناني يرتبط بالأسطورة ويتداخل معها إلى حد التماهي، وإذا جاز لنا أن نرتق بهذه المسلمة إلى أفق الحقيقة المعرفية نقول: إن الأسطورة هي الدين. وهو ما خلص إليه بعض العلماء والباحثين من أن أصل الأسطورة هو الدين، أو أن الأسطورة هي أصل الدين، أو أن الأسطورة هي الدين في مراحله الأولى. وقد قال أصحاب هذه النظرية في معرض تقديم حججهم على ما ذهبوا إليه أن الدين كلما كان أكثر بدائية كانت الأسطورة هي قوامه أو لها الحضور الأقوى في بنية وتشكيل الدين. ويرجح الناقد الديني الأمريكي روبرت سيغال Segal الفرضية الثالثة من خلال اعتباره أن "جميع القصص الدينية هي أساطير". وهو نفس ما ذهب إليه الفلكلوريون. على سبيل الإجماع. من أن "جميع الأساطير هي قصص مقدسة دينية". ومفاد هذا التمهيد والعلاقة الجدلية بين الأسطورة والدين، هو أن الحكايات الأسطورية تضيف المظهر النظري للاحية الحياة الدينية العملية.. فالتدين الذي تجسد في التعبير الانفعالي الجمعي من خلال الطقوس المشتركة التي تلتقي عندها الانفعالات الفردية في مظهر موحد، وجد موجّه وسنده النظري في الأسطورة. وبالتالي؛ فلا وجود لأي انفصال بينهما، لأنهما متضايقان، وبينهما تبعية متبادلة. فكلاهما يدعم الآخر ويفسره. وأن الدين بقدر ما هو موضوع الأسطورة، ومادتها التخيلية، بقدر ما هو عنصر بنيوي في مفهومها وتشكلها. وأن جدل الديني والأسطوري يتأسس على مركزية الآلهة في الكون، المغيبة للسببية الإنسانية فيه، وظهورها المتفرد على مسرح التاريخ وحضورها "الإحيائي" في ظواهر الطبيعة. ونلمس هذا بوضوح في الأدبيات الهومييرية: فالآلهة عند هوميروس يديرون كل شيء، والدين لا يفسر فقط الحياة اليومية، بل وكذلك أصول الظواهر الطبيعية ونشأة الكون.

إن استدعاء العقل واستحضاره لهذه اللحظة؛ لحظة التأسيس التخيلي الأسطوري لنشأة الفكرة الدينية وتبلورها في الثقافة اليونانية القديمة في تمظهراتها الاجتماعية، وتحليلاتها المشهدية الفنية، يدفع بالتفكير فيه إلى عتبة أفق إشكالي تفرضه علاقة الأسطورة اليونانية بالدين كما تحدت وثبتت في إحداثيتها المفهومية والتاريخية التالية :

إن كون الأسطورة . في إحداثيتها المفهومية . "حكاية مقدسة"، هو ما يجعلها وثيقة الصلة بالدين من منطلق أن المقدس هو جوهر الحقيقة الدينية. وقد تجسّدت هذه العلاقة، عملياً، في إحداثيتها التاريخية؛ بحيث شغل الدين حيّزاً مهماً في الأسطورة اليونانية، وهو ما حدا بالمؤرخين المحدثين إلى التأكيد . على سبيل الإجماع . بأن "الأساطير اليونانية القديمة هي المصدر الرئيسي للفكر الديني اليوناني، وذلك بما تحويه من قصص عن أصول الآلهة وأسمائها وأشكال الطقوس وأسس العبادات".

وانطلاقاً من ذلك؛ فإن التفكير في ثنائية الأسطوري والديني في لحظته اليونانية يفرض على العقل التساؤل التالي: هل الدين خاصية بنيوية في الأسطورة، أو هو موضوع لنشاطها التخيلي؟ وبصيغة أدق؛ هل الأسطورة في الفضاء الثقافي اليوناني دينية الماهية والتوجه، أو أنها مرجعية تصوّرية للدين؟ وإذا كانت كذلك؛ فما هي الأدوات والآليات التخيلية التي وظّفتها في تمثيلها وتمثيلها للحقيقة الدينية؟

التأسيس الأسطوري والديني:

إن الأسطورة في بعدها المفهومي والوظيفي تستبطن المعنى الديني، فهي تتأسس على الحقيقة الدينية وتؤسسها في نفس الوقت. إذ الدين، بقدر ما هو موضوعها الأثير؛ فهو مكون بنيوي يخص طبيعتها، مما يجعلها دينية بالماهية والجوهر. كما يتضح ذلك من خلال تحديدها: فهي "بالمعنى الحرفي اليوناني، تنطبق على كل حكاية تروى"¹، وموضوع الحكاية هو "الآلهة" التي تشكل نواة "الدين" ومدار حقائقه بكل محمولاتها العقدية والطقوسية، وما يتمخض عنها من تساؤلات وجودية ومعرفية وقيمية. وهذا ما حمل هيجل على الاستنتاج أن "الدين يشكل القرابة، فهو يشارك الأسطورة في الموضوع الكلي للآلهة"². وهو ما يعني أن الدين كمجال قدسي لعالم ألوهي، يتضمن تصورات وجودية، وحقائق عقدية، ومعايير قيمية... يجد في الأسطورة وسطاً خصباً لتصوير حقائقه خيالياً وتجسيدها عملياً، انطلاقاً من مشترك "الألوهية" الذي يجمعهما. والألوهية بما هي مضمون الحكاية الأسطورية وأفقها المعرفي، هي محور المقدّس ومداره، وبالتالي فإن ما يجعل الأسطورة تتصف كونه "قصة مقدّسة، هو أنها من عمل كائنات عليا"³، حيث إن اهتمامها بالمقدس على مستوى وظيفتها التخيلية انعكس على مفهوميّتها من جهة: فؤسّمت بـ "قصة المقدّسة"، وميّزها وحدد ماهيتها بأنها "دينية" من جهة ثانية، من منطلق أن ما هو ديني؛ فهو "مقدّس" بالجوهر. وبالتالي فإن "المقدس" كخاصية بنيوية ومفهومية مشتركة بين الدين والأسطورة، هو الذي مكّن لـ "الدين" من التمرّكز في الوسط التخيلي الأسطوري، وأضفى على الحكاية الأسطورية حوله؛ الصفة القدسية. وعن تمكين القدسي للدين من التغلغل في الأسطورة، وبالتالي قدسية حكايتها عنه؛ يقول الأدب فؤاد جرجي بربارة: "وللعنصر الديني في هذه الأسطورة اليونانية حيّز مهم، دون أن يتركز دين الإغريق على اللاهوت وعلم الكلام والماورائيات أساساً، لأنه استند إلى مقولتي المقدس والمدنس"⁴.

وما يلفت الانتباه في التحديد المفهومي السابق للأسطورة، هو انطواءه على الخاصية المكانية: أي أنه تحديد مفهومي "يوناني". وهو ما يفيد أن أسطورة الدين وديننة الأسطورة؛ تخريج وإخراج يوناني على سبيل الأصالة والتميز. ومن ثم فالأسطورة في إحداثيتها المفهومية هذه؛ والمتماثلة في وصلها واتصالها بالدين طبيعة ووظيفة، تحيل. على سبيل الضرورة وال لزوم. إلى إحداثية تاريخية، وهي التحقق المعرفي والثقافي (للدين الأسطوري) في الزمان والمكان. وحينما يثار موضوع أسطورة الدين في ارتباطه بالإحداثية

- (1). بيار غريمال: "الميثولوجيا اليونانية"، ترجمة: هنري زغيب، سلسلة زدي علماء، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1982، ص: 6.
- (2). هيجل: "محاضرات في تاريخ الفلسفة"، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص: 189.
- (3). مرسيا إلياد: "مظاهر الأسطورة"، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 1991، ص: 21.
- (4). فؤاد جرجي بربارة: "الأسطورة اليونانية"، منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، 2014، (د. ط)، ص: 6.

التاريخية، تكون المدينة اليونانية . بما هي فضاء عمومي للتدينّ الجسد للتمثيلات الأسطورية للدين . هي التحقق العياني لهذه الإحداثية التاريخية، وهو ما يكشف أن الأسطورة في اتجاهها وتوجهها الديني؛ يونانية المنبت والمنشأ. (كما يشير إلى ذلك التحديد المفهومي السابق)، وأنها (أي الأسطورة) الوسط المعرفي الذي تشكلت فيه الفكرة الدينية، لتتبلور لاحقا في الحقل الفلسفي. وفي هذا السياق؛ يكاد يجمع المؤرخون المحدثون "أن الأساطير اليونانية القديمة هي المصدر الرئيسي للفكر العقدي، وذلك بما تحويه من قصص عن أصول الآلهة وأسمائها وأنسابها وأشكال الطقوس وأسس العبادات."¹ وفي نفس المنحى يؤكد ميرسيا إيليا في كتابه عن تاريخ الأديان، أن الأساطير اليونانية مثل غيرها، يجب النظر إليها، باعتبارها ظاهرة دينية، ومصدرا هاما للمعتقدات والعبادات، موضحا أن الأثر الذي تحدثه الأسطورة أعظم قوة من تلك التعاليم المباشرة التي تحويها الأسفار المقدسة، ذلك على الرغم من سداحتها وصبغتها الخرافية².

والحضور الديني في الأسطورة اليونانية كمحتوى معرفي . في تفصله بموضوع الآلهة . يتجسد انطلاقا من أسلوبها التمثيلي التخيلي في قراءة الحقيقة وتقريبها ومقاربتها، وهو "الحكاية" التي ترويها. كما يفيد ذلك التعريف السابق الذي أسلفنا ذكره. وانطلاقا من ثنائية التكوين البنيوي والحضور الوظيفي للدين في الأسطورة اليونانية، تتحدد طبيعة وخصوصية قراءتها لموضوعها . وهو سرد حكاية الآلهة (صفاتها أفعالها...) في جوهرها وتجوهرها الديني . وهي خصوصية مقارباتية يفرضها الطابع والطبيعة المفارقة والخالقة للموضوع، والتي تكشف عن نفسها من خلال مجموعة من الآليات التخيلية التمثيلية، هي ذات الإحداثيات المشكلة لبنيتها.

وهذه الآليات . بما هي قول شارح لمضمونها الديني . هي: الخيال كمصدر لإنتاجها (أي الحكاية)، والشعر كأسلوب لصياغتها، والرواية الشفوية كطريقة لعرضها، والإيمان الديني كمبرر لتصديقها، والفن (الرسم/ النحت/ الموسيقى/ المسرح) كتجلي فعلي وتجسيد خارجي لأثرها الداخلي في وجدان المتلقي. ومن ثم، فإن هذه الإحداثيات بقدر ما هي خصائص مشكّلة لماهية الأسطورة ولبلورة معناها وتمازجها، وبقدر ما هي أدوات لقراءتها واشتغالها على موضوعها، بقدر ما هي قرائن دالة على الحيز الواسع والحضور الكثيف للظاهرة الدينية (تمثلا وتمثيلا) الذي يستبطنه فضاءها، وعلى مدى تغلغلها في أعماق الوجدان وتجذرها وانتشارها في المكان، فهي ظاهرة متعددة الجوانب والأبعاد: منها ما يتصل بالغيب وما يرتبط بها من صور مفارقة ونزعات روحانية، ومنها ما يمس صميم النفس البشرية في مستواها اللاواعي (العاطفي الوجداني والدوقي الصوفي والجمالي)، ومنها ما يتصل بالحياة الاجتماعية ومظاهرها الثقافية (العادات والتقليد والطقوس الدينية...) أو التدين كنتيجة وتجلي فعلي لجدلية الغيب والإنسان. وهو ما يعكس في النهاية؛ عمق المكانة التي يحظى بها الموضوع الديني في الأسطورة، ومن ثم المدينة اليونانية.

التوجه الفني (الشعري) للأسطورة في تصوير الحقيقة الدينية:

سبقت الإشارة إلى أن الأسطورة اليونانية قد لجأت إلى الفن للتعبير عن الحقائق الدينية؛ تصويرا خياليا عن طريق فن الشعر، وتجسيدها عمليا انطلاقا من فن: الرسم، النحت، الموسيقى...

(1). عصمت نصار: "الفكر الديني عند اليونان"، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2005، ص: 21

(2). دائرة المعارف البريطانية، الأسطورة وعلم الأساطير، ترجمة عبد الناصر محمد نوري، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1986: ص: 10

إن التصوير الفني للحقائق الدينية التي ينتجها الخيال الأسطوري؛ لا يتحقق إلا في عالم الشعر. أي أن انزياح الأسطورة إلى الفن يتمثل في صورته الشعرية ابتداءً، فهي "تفهم كمجاز شعري عن تصور فكري بدائي"¹، من منطلق أن الشعر هو الإطار الأنسب لاستيعاب مضامينها الدينية، لما بينهما من تماثل في الصورة باعتبارها الخارجي كمظهر يُشد في وجوده إلى عمق الداخلي كقوة إخراج؛ وهو الخيال. فليس هناك صورة أسطورية قائمة بذاتها، إنما تأتي أسطورتها من طريقة تشكيلها، أي من خلال طريقة التعبير عنها (شعريا)، ولهذا نفهم لماذا شكل الشعر الهومييري بداية التأسيس لميلاد الأسطورة في الحضارة اليونانية. إذ يُرجَّح أن هوميروس هو المرجع الأول لتأسيس الأساطير وتحديد إطارها على حد قول أحد المؤرخين للفكر اليوناني: "القصائد الهومييرية أقدم ما وصل إلينا من شواهد الفكر اليوناني."²، لذلك فمرحلته "توصف بأنها المرحلة الأسطورية" (يوسف حامد الشين ، 1998: 135). وكما أن الأسطورة تظهر في شكل تعبير شعري؛ فإن الشعر يملك طابعا أسطوريا وهذا ما نقف عليه من خلال اطلاعنا على "الإلياذة" و"الأوديسة"، فهما ملحمتان شعريتان تضمّان بشكل أو بآخر صور أسطورية لحياة الآلهة، ومعاني مختلفة لمفهوم الدين في ذلك الوقت"³. وكذلك الأمر بالنسبة لهزود في قصيدة "أنساب الآلهة"؛ إذ يصور لنا قصة الآلهة الذين يعيشون فوق جبل أولمبيوس، مقدما من خلال ذلك تفسيراً لاعتقالاتنا لنشأة الكون.⁴

إن الوجود الشعري وجود ملهم كما يروي ذلك هزود في الجزء الأول من قصيدة "أنساب الآلهة" (1. 34) كيف بدأ لديه الإلهام الرباني وكيف مجدّ إلهات الشعر اللائي ألهمنه شعره، متوسلا لهن إملاء المزيد من الأشعار عليه، حيث يقول في الشطر (32. 33) منها: "هن اللائي علمن هزود أجمل الغناء عندما كان يرعى خرفانه تحت جبل هيليكون المقدس. حيث كانت أولى كلمات الربات، إلهات الأولمب، بنات زيوس هي: [أيها الرعاة قاطنو الحقول، أيها الحزانى التائهون في الأرض، الذين ليس لهم غاية سوى الاقتيات. نحن نعرف كيف ننسج الأكاذيب، تماما كما نعرف كيف نروي الوقائع. ولكننا نعرف أيضا. عندما نريد. الكشف عن الحقائق]. هكذا تحدثت بنات زيوس العظيم، الصدوقات. وفي لحظة بصر حظيت منهن بغصن صغير رائع، انتزعته من شجرة زيتون مزهرة. ثم أوحين إليّ بأنغام إلهية، حتى أجدد بها الماضي والمستقبل، وأن أوحى جنس السعداء، ممن هم على قيد الحياة، ابتداءً منهنّ في كل فاتحة ونهاية من أغاني."⁵ فالفن الشعري كما يفهم من هذه الرواية ضرب من الفيض يحصل للإنسان على سبيل التلقي المباشر، فهو مرتبط بمصدر لاعتقالاتي في جوهره؛ أي إنه هدية الآلهة.⁶ وهو بذلك شكل من أشكال الوحي الديني في مسحته الأسطورية.

(1). أليكسي لوسيف: "فلسفة الأسطورة"، ترجمة: د، منذر حلوم، دار الحوار اللاذقية سوريا، (د. ط)، 2000، ص: 111.

(2). يوسف كرم: "تاريخ الفلسفة اليونانية"، مكتبة النهضة المصرية، ط5، 1966، ص: 2.

(3). يوسف حامد الشين: "الفلسفة المثالية"، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط1، 1998، ص: 137.

(4). حسام الدين الألوسي: "بواكير الفلسفة اليونانية، (من الميثولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان)"، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية مصر، ط1، 2002، ص: 248.

(5). Hésiode Théogonie , Les Travaux et les Jours, Trad. Paul Mazon, éd. Les Belles Lettres, Paris, 1967, Vers (32 – 33)

(6). فؤاد المرعي: "نظرية الشعر في اليونان القديمة"، مجلة عالم الفكر، المجلد 25، العدد 3، مارس، 1997، ص: 198.

وهكذا؛ فالتصوير الأسطوري للحقائق الدينية يتشكل انطلاقاً من تدخل الآلهة كمصدر للإلهام الشعري، وتتركزها كموضوع للحكاية الأسطورية في نفس الوقت، وتكتمل بنيته بالتمفصل المزدوج بين جدل الشائلي: الشعر/ الأسطورة.

ولحظة التخييل الأسطوري للدين في صيغته الشعرية عند هذا الأفق، هي اللحظة التي يغيب فيها المفهوم (مفهوم الدين) في إخراج المنطقي العقلي، وتحضر الصورة كمعطى خيالي يتوقف صدقها؛ بل قبولها على الذوق باعتبارها بناءً شعرياً، وعلى الإيمان المكون لمضمونها دينياً أسطورياً. وذلك لأن الخيال موصول بالوجدان لا بالعقل، من منطلق "أن الشعر يعتمد في الدخول إلى النفوس على عملية التخييل لا على الإقناع العقلي أو البرهان المنطقي"¹. ومن ثم؛ فالذات تنفعل وتنجذب نحو الجميل الذي يقدمه الشعر، وتنساق للمقدس الذي تصوره الأسطورة. والصورة بما تتضمنه من حيوية عجائبية ومتعة المشهد، أمام جفاف وجفاء المفهوم وصمت المقولة، تحيل الذات إلى حالة من الوجد الصوفي والسكر والانبهار والعجب والخشوع، وما يصحب ذلك من سكون واستسلام وتسليم وقبول ورضى بالمعطى، فتغيب، بالتالي، روح الشك والنقد، والتساؤل...

حينما كان الشعر ضرباً من النبوة تأسيساً على الاعتقاد الهزبدي الذي أفاد أن ربات الشعر هن اللائي أوحين له بأشعاره، فإن الشعراء في اللحظة الأسطورية الإغريقية كانوا بمنزلة الأنبياء، الأمر الذي جعل الصور الأسطورية التي تنقلها أشعارهم ما تلبث أن تتجمع في الوجدان، لتتحول إلى معتقدات، تشكل بتمركزها داخل الذات ديناً بالقوة، ولذلك "كانت الإلياذة عند الإغريق أشبه بالإنجيل عند المسيحيين، والقرآن عند المسلمين"². وبهذا؛ شكلت المرحلة السمعية الشفوية التي مثلها الشعر، لحظة تأسيس الدين الأسطوري، ولذلك نجد: "أن حياة اليونان العقلية كانت مرتبطة أشد الارتباط بالدين مع هوميروس ومع هزبوس"³.

والفن (الشعري) إذ يعمل على إنزال مفردات الحكاية الأسطورية إلى أعماق الحياة النفسية، فهو يحولها إلى معتقدات دينية؛ أو دين بالقوة، وإذًا يجعل الذات في حالة من "الوجد الصوفي"، وهي الحالة أو اللحظة التي يتحول فيها الدين بالقوة إلى تدين بالفعل؛ لحظة تحول الحكاية المسموعة إلى مشهد مرئي، ولذلك "لم يكتف الأقدمون بسرد هذه الأساطير شفويًا على مسامع بعضهم بعضاً، بل مثلوها مشهديات"⁴ والأسطورة بانتقالها من المرحلة السمعية الشفوية التي مثلها الفن الشعري إلى مرحلة التمثيل المشهدي، ازدادت حاجتها إلى فنون أخرى لممارسة وجودها، وتشخيص معتقداتها، وترجمة مفرداتها إلى وقائع مشاهدة ومتحركة في المكان. وقد تمثلت هذه الفنون في النحت والرسم والمسرح والموسيقى... وهو ما يفسر لنا من جهة أخرى؛ أن التفات اليونانيين إلى الفن واهتمامهم المتزايد به، يرتد في الأساس إلى الأسطورة وفي هذا السياق يقول الأهواني: "... وكانت عناية اليونانيين بالفن عظيمة، يدفعهم إليها عدة بواعث: أولها الدين الأسطوري وما كان يتطلب من بناء الهياكل وتمثيل الآلهة وإنشاد التراتيل في الأعياد، وتمثيل المسرحيات التي تصور حياة الآلهة ومآسيهم، وكانت ديانتهم تأخذ بالتشبيه، وتشجع على عمل التماثيل حتى تستقر الآلهة على الأرض"⁵. وهو ما يقود إلى الاستنتاج؛ أن الخيال الأسطوري في تقريبه للحقائق الدينية على مستوى تمثيل الصورة،

1) مهدي فضل الله: "آراء نقدية في مشكلات الدين والفلسفة والمنطق"، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1981، ص: 268.

2) أحمد فؤاد الأهواني: "فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط"، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د. ط)، 1954، ص: 24.

3) عزت القرني: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، ط2، 200، ص: 9

4) يوسف حامد الشين: "الفلسفة المثالية"، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط1، 1998، ص: 47

5) أحمد فؤاد الأهواني، المرجع نفسه، ص: 12.

الصورة، يتحول إلى خيال في على مستوى تمثيل المشهد، وتجسيد الصورة المتخيلة في الواقع، مما يعني أن التواصل الوظيفي بينهما يتجلى في صورة حركة متجهة من أفق المثال إلى واقع التمثيل. وبهذا يبدو الفن هو المنفذ الأنسب لنقل الحقيقة الدينية من فضاء المتخيل إلى الواقع الحسي.

والدين انطلاقاً من هذه العلاقة الوظيفية بين الأسطورة والفن يأخذ صيغة تركيبية معقدة ومتداخلة الأبعاد: فهو يتحدد أولاً على مستوى الأسطورة، منها يستمد وجوده وتشكله، وثانياً على مستوى الفن؛ إذ يجد فيه مجالاً خصباً وملائماً لتحقيق مضامينه وتجسيدها حسياً، ويتحدد ثالثاً، من خلال الموضوع المتخيل وهو "الآلهة" باعتبارها كينونة مفارقة للواقع الحسي، لا يمكن تمثيلها إلا خيالاً.

والفن إذ يعمل على تمظهر وتحلي المتخيل الديني في الفضاء الخارجي، يكون قد أخرج الأسطورة من الحيز السيكلوجي الذاتي الفردي، إلى الحقل الاجتماعي الجماعي. ليساهم بذلك الإخراج والتخريج في ترسيمها الثقافي، ومن ثم تحول القوة الروحية للدين إلى فعل الدين بما هو ممارسة قيمية وطقوسية تعبدية. وبهذا كانت الأسطورة اليونانية في توجهها وتوجيهها الديني موضوعاً ومرجعية، بالفعل، مصدر إلهام للشعراء المسرحيين والغنائيين في توظيف خيالهم للتعبير عن المخزون الديني المتحذر في الوجدان. كما أن قرباتها من حيث طبيعتها مع الفن هي التي أوحى للفنانين بالصور والرسوم والنقوش والتماثيل المحسدة للآلهة وصفاتها. كما أفادت المصادر التاريخية أن نساء إسبرطة كن يضعن في بيوتهن صور وتماثيل لـ "أبلون" و "ناريسيس" وغيرهما من الآلهة الجميلة حتى يلدن أطفالاً على صورة الآلهة، وما فيها من جمال¹. وقد أخذ امتزاجها بالحياة الاجتماعية بعداً دينياً من خلال الاحتفالات التي كانت تقام في المناسبات، كالابتهالات لـ "ديونيسوس" وترانيم للآلهة، ومن هنا، يبدو أن "الموسيقى كانت عنصراً أساسياً لا غنى عنه في الاحتفال كله، لأن الدين يشق على الأنفس من غير الموسيقى، والموسيقى تنتج عن الدين كما ينتج الدين عن الموسيقى"².

الدين الأسطوري والإحيائية كاتجاه معرفي:

أو الدين من موضوع للتصوير، إلى آلية لتنشيط الخيال الأسطوري:

إن الاستثارة والحضور الكثيف والمتفرد للدين، وتمركزه كموضوع كلي في الوسط التخيلي الأسطوري؛ أحاله إلى مرجعية تصويرية تمثيلية (معرفية) موجّهة للأسطورة في تعاطيها وتفاعلها مع الخوارق الماورائية والموجودات الطبيعية والظواهر الاجتماعية. ومرد ذلك إلى كون الأسطورة ذاتها فضاء معرفياً تخيلياً لتصوير حقيقة الألوهية بما هي جوهر الفاعلية الدينية، في الكون والتاريخ، أي أنها وجدت في الدين سنداً معرفياً أنسب لها لتمثل موضوعها الأثيري؛ وهو "الألوهية" باعتبارها حقيقة دينية بالجواهر والانتساب. وبالتالي فإن استبطان الأسطورة للحقيقة الدينية جعلها ديناً بالقوة، فكانت هي الدين*، حيث أصبح الديني هو عين الأسطوري في النظرة

(1). أحمد فؤاد الأهواني، المرجع السابق، ص: 13.

(2). محمد الخطيب: "الفكر الإغريقي"، منشورات علاء الدين، دمشق، ط1، 1999، ص: 57.

*. إن إشارتنا إلى مسلمة أن "الأسطورة هي الدين"، لا يعني أن الصفة الدينية ملازمة للأسطورة على سبيل الإطلاقية والعموم. وأنها خاصية بنيوية ثابتة ووحيدة لوجود الأسطورة ولماهيتها ووظيفتها، بل إن القصد من اعتبار "الأسطورة هي الدين" أنها دين بدائي/ دين أسطوري، أو الدين في مرحلته البدائية، والذي تجسّد في الأديان الوثنية التي روج لها الفكر الشرقي القديم، من قبيل الكونفوشيوسية والبوذية والزراديتشية....

إلى الغيب والطبيعة والإنسان والمجتمع.... وبمنطق العلاقة المتجاوز لمنطق الماهية فيما يتعلق بهذه الثنائية؛ فإن "الدين والأسطورة صنوان متلازمان"¹. وفي هذا السياق يوضح فراس سواح قائلاً: "تنشأ الأسطورة، إذن، عن المعتقد الديني، وتكون بمثابة امتداد طبيعي له"². وهي بقدر ما تستمد منه وجودها ومضمونها المعرفي، فإنها "تعمل على توضيحه وإغنائه، وتثبتته في صيغ تساعد على حفظه وعلى تداوله بين الأجيال. كما أنها تزوده بذلك الجانب الخيالي الذي يشده إلى العواطف والانفعالات الإنسانية"³. وبهذا يبقى الدين بحقائقه الماورائية اللامعقولة مرجعية ومصدراً لتنشيط الخيال الأسطوري، حيث تجد في العالم القدسي الذي يمثله وفي رموزه التي تعبّر عن الكائنات العليا التي تسكنه، السبب الفاعل في الوجود، والقوى المحركة للموجودات.

والدين كمرجعية في بناء المعرفة الأسطورية يتحرك في ثلاثة اتجاهات:

فهو أولاً: يؤسس للإحيائية كمرجعية لتفسير الطبيعة: حيث ساد الاعتقاد بأن كل شيء في الواقع وأية ظاهرة في الطبيعة إلا وتسكنها روح تمنحها الحياة وتتحكم في حركتها وصيرورتها، وبذلك باتت "الإحيائية هي السمة المميزة للديانة اليونانية في علاقتها بحياة الطبيعة. فالطبيعة كانت عامرة بالأرواح والعفاريت والآلهة المسكونة بهم الجبال والغابات، كان مأواهم الأشجار والحجارة، والأنهار وعيون الماء. وكان بعضهم جلفاً ومخيفاً، كما الموحش من القفار، وبعضهم الآخر لطيفاً رحيماً، يرضى بلطفه حياة النبات ويشمل بحمايته الجنس البشري"⁴.

وإذا انتقلنا بالأسطورة الدينية أو الدين الأسطوري من منطق الماهية إلى منطق العلاقة؛ فهي تتحدد كنمط ونوع ضمن أنواع أخرى من الأساطير. وفي سياق تنوع أشكال الأسطورة، قسّم الباحثون الأسطورة إلى أربعة أنواع أساسية:

الأول: الأسطورة الدينية: ومفادها أن الأسطورة هي الدين في مراحله الأولى أو أنها دين بدائي، أي أن الدين كلما كان أكثر بدائية كانت الأسطورة هي قوامه أو لها الحضور الأقوى في بنية وتشكيل الدين. وعن هذا النوع من الأسطورة؛ يقول لويس سبنس: "إن الأسطورة كانت في الأساس نمطاً من أنماط طقوس العبادة".

الثاني: الأسطورة التاريخية: هي تصوير تخيلي المرحلة الحضارية التي يمر بها المجتمع، ويرى مولر أنها أحاديث مصورة لأحداث تاريخية حقيقية واقعية. وأنها قصة أبطال حقيقيين قاموا بأعمال مجيدة فلخدمهم أخلافهم وحولهم من بشر إلى الآلهة. وترى المدرسة التاريخية أن الأسطورة التاريخية؛ ليست في أصولها إلا تاريخ البشرية الأولى التي تناست ملامحه الدقيقة واضفى الخيال الإنساني عليه جواً فضفاظاً وتاريخ الآلهة ما هو إلا تاريخ لعصر الأبطال.

الثالث: الأسطورة الرمزية وهي تحتوي بعد رمزي ويذهب أكثر اصحاب هذا الرأي إلى أن الأسطورة تخرج من منطقة ما قبل الشعور الجمعي ولذا فهي تتوسط فيما بين الواقع والحلم ويذهب اصحاب مدرسة التحليل النفسي وعلى رأسهم فرويد ويونغ واتباعهما إلى أن الأسطورة تنبع من الجهاز اللاشعوري في الإنسان كـرغبة في تفجير، والتفريغ عما يختلج في داخل الإنسان من رغبات.

الرابع: الأسطورة الطبيعية التنشئية التكوينية التعليلية، حيث يذهب الباحثون إلى أن هذا النمط من الأساطير والذي حاول من خلاله الإنسان تفسير الطبيعة والكون بما فيها الزمان، ظهر بعد أن اعتقد البشر بوجود مفهوم الروح وقد استغل الكهنة هذا المفهوم بادعائهم أنهم على اتصال مع هذه الأرواح.

(1). محمد مصطفى: "الدين والأسطورة.. دراسة مقارنة في الفكر الغربي والإسلامي"، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص: 23.

(2). فراس سواح: "الأسطورة المصطلح والوظيفة"، رابط النشر على الويب: <http://www.makbttna2211.com/book/13478>. تاريخ النشر 2013/07/31.

(3). المرجع نفسه.

(4). جورج طرابيشي: "نظرية العقل"، دار الساقي، ط2، 1999، ص: 52.

وهكذا حينما تتحول الطبيعة إلى فضاء مسكون بالأرواح، تكون الإحيائية . بطبيعتها وطبيعتها الدينية . هي المرجعية الأنسب لإدراكها.

وهو ثانياً: يعمل على التشخيص والتمثيل بدل التجريد، لأن الأسطورة بما هي وسط خيالي لتمرکز الآلهة، تجد في الدين السبيل الأوحده والأنسب لتشيت هذه المركزة من منطلق أن "الدين أساسه النظرة إلى الكون التي تتمحور حول الله"¹. والدين في مسحته وطبيعته الأسطورية لم يتمكن من إدراك الإله في كينونته الميتافيزيقية باعتباره "الواحد" الذي تصدر عنه الكثرة، بل تمثله على أنه هو الكثرة عينها. وبانسداد هذا الأفق الميتافيزيقي أمام الأسطورة، لم تجد إلا التمثيل المشهدي التشخيصي، ولا يشخص إلا الموجود المتكرر المتعدد، ومن ثم باتت الآلهة في الأسطورة اليونانية ذات طبيعة مركبة متعددة، وليست جوهرًا ميتافيزيقياً واحداً ووحيداً بالذات لا بالعدد.

ولهذا كانت الإحيائية الدينية هي المرجعية الأنسب للإدراك داخل النسق الأسطوري اليوناني، والتي انتهت إلى الاعتقاد بأن مجمل الظواهر الكونية تمتلئ بالحياة والقوة الغائية، والاعتبار ككائنات تزخر بالحياة والحيوية. وبالتالي فلا توجد مساحة في هذا الوسط اللاعقلاني للتفكير السبي.

بهذه النظرة الإحيائية في خطها المعرفي الديني، تبدو الأسطورة الموطن الأصلي لانبثاق الحقائق الدينية، والفضاء الأنسب والأخصب للتعبير عنها، ليتأسس بذلك؛ الموقف العقائدي مقابل الموقف النقدي، لتشيت وترسيخ "مبدأ الاعتقاد" وإسقاط "مبدأ الفهم"، ومن ثم اللجوء إلى "الرهان" بدل التعليل والبرهان، وبالتالي الانخراط المباشر والعفوي في التجربة المعاشة والامتناع عن البناء العقلاني والقصدي للمعرفة.

وعند هذا الأفق، تتجلى حتمية التمثيل والعلاقة الجدلية بين الأسطورة والدين. "فالحكايات الأسطورية تضيف المظهر النظري لناحية الحياة الدينية العملية.. فلا وجود لأي انفصال بينهما، لأنهما متضايغان، وبينهما تبعية متبادلة. فكلاهما يدعم الآخر ويفسره."² وأن جدل الديني والأسطوري يتأسس على مركزة الآلهة في الكون وظهورها المتفرد على مسرح التاريخ. ونلمس هذا بوضوح في الأدبيات الهومييرية: فالآلهة عند هوميروس يديرون كل شيء، والدين لا يفسر فقط الحياة اليومية، بل وكذلك أصول الظواهر الطبيعية ونشأة الكون.

وهو ثالثاً: يهيء الإنسان للاقتناع بهذا التفسير اللامنطقي للطبيعة، حيث نجد أن الأسطورة اليونانية . ومن خلال اتجاهها نحو المشخص . تستثير وجدان الإنسان، وتفعّل عاطفته كشرط يؤسس للإيمان معياراً للمحاكمة والتصديق. وتوفر البعد الديني هو ما يبرر طرح "الإيمان" (بديلاً للعقل) كمرجع للحقيقة، ويضع الإنسان في موضع التسليم والتلقي، ويهيئه للاقتناع. "فالشعوب التي حاكت لنفسها أساطير، أضفت إليها بعضاً من إيمانها لتصديقها أكثر."³ والإيمان كمعيار للتصديق أساسه الشعور الوجداني، وليس الوعي العقلاني. والدين الأسطوري لا يثبت "الإيمان" كمشروع وكشرط معرفي إلا بمقاومة النزعة البرهانية المكبوتة في أعماق

(1). بولس الخوري: "في الفلسفة والدين"، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص: 26

(2). أرنست كاسير: "الدولة والأسطورة"، ترجمة: أحمد حمدي محمود، مراجعة أحمد خاكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د . ط)، 1975: 48

(3). بيار غريمال، المرجع السابق، ص: 5

النفس تحت تأثير وضغط النزعة الروحانية. وهو هنا، يحضر كميكانيزم هجومي، يعتمد إلى القضاء على روح الشك، وتغيب روح النقد، فتتسع بذلك دائرة الخيال وتضيق مساحة التعقل، ويتحول موقف الرفض إلى موقف قبول وتسليم، وهو ما يعني أن الحقائق حينما تسيج بالدين، تكون مقدسة، مما يجعل الكلمات التي ترسل والشخصيات التي تذكر والأعمال التي تروى تحمل معاني دينية روحانية، وبالتالي، تتعالى عن روح الشك، ومن ثم فلا سبيل إلى تعقلها. "ونتيجة لقطعية الخيال الأسطوري وقديسيته المرتبطة بنزعتها الدينية، فإنه يصبح بعيدا عن روح الشك، بل إن إثارة الشك حوله يكاد يعني مرقا على جملة المعتقدات التي يدين لها بالولاء."¹

خاتمة:

ما يمكن استخلاصه وإفادته من حركة تفكيرنا حول هذه الإشكالية (السؤال الديني في المتخيل الأسطوري اليوناني)، أن الأسطورة اليونانية تعد بلا منازع نموذج التصوير التخيلي لتقريب ومقاربة الحقيقة الدينية. اختزلت الدين في قصص خيالية، تتضمن أحداثا خارقة تقوم بها الآلهة. وانطلاقا من ذلك، تركزت الأسطورة اليونانية، باعتبارها ظاهرة دينية، ومصدرا هاما للمعتقدات والعبادات، ومصدر ألهام للفنانين من الشعراء والرسميين والمنشدين... للتعبير عنها ووصفها وتمثيلها مشهريا.

وما يمكن ملاحظته من المضمون الديني للأساطير اليونانية، هو أنه يحوي بعض القصص الخيالية التي توضح نشأة الكون، وتفسر الظواهر الطبيعية، وتصور قدرة الآلهة وقوتها وصفاتها وعلاقتها بالإنسان، ومدى تأثيرها عليه، وكذا المبادئ الأخلاقية وأصول العبادات والطقوس، وتحديد العلاقة بين أفراد الأسرة والمجتمع.

والبعد الديني في الأسطورة، بما هي حكاية خيالية لاستعراض أفعال الآلهة في العالم، هو ما جعلها تنزع إلى "الاعتقاد" والتسليم بالمعتقد، بدل التأمل والنظر في الحقيقة. ومن ثم فهي كفضاء للمتحيل وحقل للإحيائية الدينية؛ تتجه إلى تشخيص المعتقد؛ بحيث تجعل من أشياء الطبيعة وظواهرها مرآيا عاكسة للتمثيلات التي يفرزها نشاطها التخيلي.

(1). مجدي الجزيري: "الفلسفة بين الأسطورة والتكنولوجيا"، دار الوفاء، الإسكندرية، (د. ت)، 1975، ص: 40.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد فؤاد الأهواني، (1954)، "فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط"، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
2. أرنست كاسيرر (1975)، "الدولة والأسطورة"، ترجمة: أحمد حمدي محمود، مراجعة أحمد خاكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
3. أليكسي لوسيف (2000)، "فلسفة الأسطورة"، ترجمة: د، منذر حلوم، دار الحوار اللاذقية سوريا.
4. بولس الخوري (2002)، "في الفلسفة والدين"، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1.
5. بيار غريمال (1982)، "الميثولوجيا اليونانية"، ترجمة: هنري زغيب، ط1، سلسلة زديني علما، منشورات عويدات، بيروت.
6. جورج طرايشي (1999)، "نظرية العقل"، ط2، دار الساقى.
7. حسام الدين الألوسي (2002)، "بواكير الفلسفة اليونانية، (من الميثولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان)"، ط1، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية مصر.
8. دائرة المعارف البريطانية (1986)، الأسطورة وعلم الأساطير، ترجمة عبد الناصر محمد نوري، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق.
9. عزت القرني (2003)، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون"، ط2، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت.
10. عصمت نصار (2005)، "الفكر الديني عند اليونان"، ط2، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع.
11. فراس سواح: "الأسطورة المصطلح والوظيفة"، رابط النشر على الويب: <http://www.makbttna2211.com/book/13478>. تاريخ النشر 2013 /07 /31.
12. فؤاد المرعي (1997)، "نظرية الشعر في اليونان القديمة"، مجلة عالم الفكر، المجلد 25، العدد 3، مارس، ص: 198.
- فؤاد جرجي بربارة: "الأسطورة اليونانية"، منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، 2014، (د. ط).
13. مجدي الحزيمي (د. ت)، "الفلسفة بين الأسطورة والتكنولوجيا"، دار الوفاء، الإسكندرية.
14. محمد الخطيب (1999)، "الفكر الإغريقي"، ط1، منشورات علاء الدين، دمشق.
15. محمد مصطفى: "الدين والأسطورة.. دراسة مقارنة في الفكر الغربي والإسلامي"، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2014.
16. مرسيا إلياد: "مظاهر الأسطورة"، ترجمة: نهاد حياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 1991.
17. مهدي فضل الله (1981)، "آراء نقدية في مشكلات الدين والفلسفة والمنطق"، ط1، دار الأندلس، بيروت.
18. هيجل (1986)، "محاضرات في تاريخ الفلسفة"، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
19. يوسف حامد الشين (1998)، "الفلسفة المثالية"، ط1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي.
20. يوسف كرم (1966)، "تاريخ الفلسفة اليونانية"، ط5، مكتبة النهضة المصرية.
21. Hésiode, (1967) Théogonie, Les Travaux et les Jours, Trad. Paul Mazon, éd. Les Belles Lettres, Paris, Vers (32 - 33)